المبحث الرابع

أمامة بنت الحارث ولغة الزَّواج

هذه وصية أمامة بنت الحارث -زوج عوف بن محلم الشيباني- لابنتها عندما حملت إلىٰ زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة: «قالت لها -أمامة بنت الحارث-: أي بنيَّة، إنَّ الوصية لوتُرِكَت لفضل أدب، تُرِكت لذلك منكِ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أنَّ امرأة استغنت عن الزَّوج لغنىٰ أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنىٰ الناس عنه، ولكن النِّساء للرِّجال خلقْنَ ولهن خلق الرِّجال، أي بنيَّة، إنَّك فارقتِ الجو الذي منه خرجت، وخَلَّفْتِ العشَّ الذي فيه درجت، إلىٰ وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكُوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا، يابنيَّة احملىٰ عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السَّمع والطَّاعة، والتعهُّد لموقع عينه، والتفقُّد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منكِ علىٰ قبيح، ولا يشمُّ منك إلا طيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهُّد لوقت طعامه، والهدو عنه عند منامه، فإنَّ حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النَّوم مبغضة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء علىٰ نفسه وحشمه وعياله، فإنَّ الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء علىٰ العيال والحشم جميل حسن التَّدبير، ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا، فإنَّك إن أفشيت سرَّه، لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره، أوغرت صدره، ثم اتَّقي مع ذلك الفرح إن كان ترِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرِحًا؛ فإنَّ الخصلة الأولىٰ من التَّقصير والثانية من التَّكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنَّك لا تصلين إلىٰ ما تحبِّين حتىٰ تؤثري رضاه علىٰ رضاكِ وهواه علىٰ هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ والله يَخِيرُ لك»[1].

(1) مجمع الأمثال للميداني. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد 2/ 263- دار المعرفة - بيروت. وينظر: جمهرة خطب العرب 1/ 145.

هذه وصية أم أرادت لابنتها الحياة بكل معانيها ومختلف تفاصيلها، فلا أعتقد أنَّها تركت شاردة ولا واردة في قاموس الحياة الزوجيَّة إلا دقَّت علىٰ بابه وأعلنت عن عنوانه، فهي تعرض الدَّاء وتقدِّم له الدَّواء في برنامج حياتي يفتح أبواب السَّعادة علىٰ مصراعيها لمن أراد أن يرىٰ الجنَّة رأي العين وإن كان يعيش علىٰ ظهر هذه الأرض، فليست قيمة الحياة في عدد سنوانها وكثرة أموالها وجاه وسلطان أصحابها وإنَّما في عش هادئ يزيِّنه هدوء البال وراحة الضمير ومراعاة مشاعر الآخرين، فالبداية توضيح للحقائق وتقرير للمسلَّمات والختام إيثار وتفضيل إن أرادت المرأة دنيا ودين.

وهذا ما تلحظه بداية في مقدمة هذه الوصية التي أشارت فيها المرأة العربية إلىٰ ثلاثة أصول:

الأصل الأول: التذكرة والمعونة

التذكرة للعاقل والمعونة للغافل، فالإنسان دائمًا وأبدًا في حاجة إليهما معًا، فربَّما ينسىٰ أو يتناسىٰ فتغيب عنه كثير من المعالم فيضع كثيرًا من الحقائق في غير نصابها الصَّحيح فيظل في أمسِّ الحاجة إلىٰ جرس إنذار يدقُّ علىٰ بابه فيلمس بعضًا من جوانب حياته فينبهه إلىٰ انحرافاته برفق وتؤدة ولين، ومن ثم يساعده علىٰ استدراك مافاته، والعاقل من يعي الدرس ويفهمه جيدًا ويستمع لنصائح الآخرين، والغافل في حاجة إلىٰ مَنْ يذكِّره، فالحياة ليست أسطورة وإنما هي حقيقة وواقع، والواقع لا بد من أن نحياه بكل آلامه وأماله.

الأصل الثاني: الإنسانيَّة

الرِّجال والنِّساء رمز لشيء واحد هو الإنسانيَّة، يجمع بينهما قالب واحد، فالنِّساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال، وحياة المرأة في بيت أبويها تختلف عن حياتها في بيت زوجها، فمهما كانت المرأة نؤوم الضحىٰ في بيت أبويها فلن تكتمل سعادتها إلا في بيت زوجها، فهذه فطرة الله التي فطر النَّاس عليها، فالتَّكامل مقبول والتَّعالىٰ مرفوض.

الأصل الثالث: الرَّحيل وحسن المعاملة

ترحل المرأة من عالم إلىٰ عالم آخر، ومن جو وعشٍّ حياة الأُبوَّة إلىٰ وكر وقرين الحياة الزوجيَّة، فالجَوُّ: قال الأزهري: ما اتَّسع من الأرض واطمأن وبَرَزَ. قال: وفي بلاد العرب أَجْوِبَة كثيرة كل جَو منها يُعْرَفُ بما نُسِبَ إليه، والعُشُّ: عُشُّ الطائر: الذي يجمع من حُطَام العيدان وغيرها فيبيض فيه، يكون في الجبل وغيره، وقيل: هو في أفنان الشجر، فإذا كان في جبل أو جدار ونحوهما فهو وَكْر ووَكْن، وإذا كان في الأرض فهو أُفْحُوص وأُدْحي، فوكر الطائر: عُشُّه. ابن سيده: الوَكْر: عُشُّ الطَّائر، وإن لم يكن فيه. وفي التَّهذيب: موضع الطَّائر الذي يبيض فيه ويُفَرِّخ، وهو الخُرُوق في الحيطان والشَّجر، والقرين: صاحبك الذي يقارنك[1].

وبتوضيح هذه المفردات يتضح أنَّ المرأة لا تنتقل بجسدها فقط وإنَّما بأفكارها وتنظيم طريقة حياتها، فالعقل إذًا يقتضي أن تكون له أمة؛ وذلك حتىٰ يكون لها عبدًا وشيكًا، والوشِيك: السريع[2]، وذلك بمعنىٰ: إذا ما طلبت منه شيئًا ما سارع إلىٰ تنفيذه ولو علىٰ حساب نفسه، وذلك لمكانتها عنده وشدَّة حبِّه لها.

فإذا ما انتبهت المرأة إلىٰ هذه الأصول الثلاثة ووضعتها في جدول أعمالها وراعت بدايتها ونهايتها، وقدَّمت ما تستطيع من جهد في سبيل تحقيقها فقد آن لها بعد ذلك أن تتعرَّف علىٰ طبيعة الحياة العمليَّة والخصال العشر التىٰ تكون لها بعد ذلك ذُخْرًا وذِكْرًا، أي بقاء وحفظًا مهما مرَّ الزَّمان أو رحلت الأجيال. يقال ذخر لنفسه حديثًا حسنًا: أبقاه، والذِّكر: الحِفْظ للشيء تَذْكُره[3].

والخصال العشر من وجهة نظري يمكن أن تُقَسَّم إلىٰ عنوانين، كل عنوان

(1) ينظر: لسان العرب (ج و و) 1/ 735، (ع ش ش) 4/ 2957، (و ك ر) 6/ 4906، وتهذيب اللغة (ك و ر) 10/ 191، ولسان العرب (ق ر ن) 5/ 3611.

(2) لسان العرب (و ش ك) 6/ 4844.

(3) السابق (ذ خ ر) 3/ 1490، (ذ ك ر) 3/ 1507.

منها يحتوي علىٰ عدَّة مبادئ، يأتي العنوان الأول علىٰ رأس القائمة فيشتمل علىٰ ثمانية منها، في حين يأتي الآخر ليقتصر علىٰ اثنتين فقط:

العنوان الأول: الصِّفات الخُلُقية

ربَّما تحتاج السَّعادة إلىٰ كثير من الجهد وطرق كثير من الأبواب، ولكن بمجرد الحصول عليها أو حتىٰ علىٰ مقدماتها يهون كل شيء، فتخيَّل بيتًا يمسي ويصبح وغيامات الحزن تسيطر علىٰ أعتابه، كيف يحيا أفراده ويصبحون عضوًا فاعلاً في المجتمع، فإن أردتِ حياة أسريَّة بلا شدٍّ وجذب، أوإشكال وتعقيد فالحلُّ فيما تقدِّمه هذه المرأة العربيَّة لابنتها ليلة عرسها:

المبدأ الأول: الصحبة بالقناعة. الاحتياج لا نهاية له، ليس له سقف محدود أوعنوان معروف، فمن كانت هذه عادته وديدنه فسوف تمرُّ به الحياة وهو علىٰ هذا الحال، وهي كذلك دون شعور بلذَّة أو متعة، فالصحبة بالقناعة أولىٰ الخصال التي تبنىٰ عليها بيوت الصالحين، فالسَّعادة لا تقاس بمقياس الغنىٰ والفقر وإنَّما بالرِّضا والتَّسليم لأمر الله ﷻ والسَّعي وفق مقتضيات شرعه.

المبدأ الثاني: المعاشرة بحسن السَّمع والطَّاعة. سمت المؤمنين الصَّالحين السَّمع والطَّاعة في المعروف، والتحلِّي بجميل الأخلاق وحسن الصِّفات، فالحياة الزَّوجية ليست حياة ملائكية بل حياة بشريَّة نصيب فيها ونخطئ، فإذا ما أحيطت بسياج السَّمع والطَّاعة عبرت إلىٰ برِّ الأمان واستقرَّت علىٰ شاطئ السعادة.

المبدأ الثالث: التَّعهد لوقت طعامه، والهدو عنه عند منامه، فإنَّ حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النَّوم مَبْغَضَة. قد لا يرىٰ الإنسان أمام عينيه عندما يشتدُّ به الجوع، وكذلك عندما يرىٰ ما يعكر صفو منامه، والمرأة العربيَّة تقدِّم النَّصيحة والتَّعليل، فالنَّصيحة تأتي في تحرِّي وقت طعام الزوج، والتَّعليل لأنَّ حرارة الجوع ملهبة: واللهب: اشتعال النَّار إذا خَلَصَ من الدُّخان، وقيل: لهيب النار: حرُّها[1]،

(1) لسان العرب (ل هـ ب) 5/ 4082.

فشهوة الطَّعام أول تركيبة ركبت في الإنسان، ومن المستحيل أن يتغلَّب عليها مهما أوتي من صلابة الجسد وقوَّة الاحتمال، كذلك الهدوء عند منامه؛ وذلك لكثرة ترحاله بحثًا عن قوت عياله، فتنغيص النوم أمارة من أمارات البُغْض والكره، يقال: نَغِصَ نَغَصًا: لم تتم هناءته، والبُغْض: نقيض الحبِّ، وفي رواية الجمهرة: مغضبة. والغضب: نقيض الرِّضا، وقد غَضِبَ عليه غَضَبًا ومَغْضَبَة[1]. فإذا غضب الزَّوج فقد خرج عن حدِّ الاعتدال، وهنا قد يحدث ما لا يحمد عقباه.

المبدأ الرابع: الاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء علىٰ نفسه وحشمه وعياله، فإنَّ الاحتفاظ بالمال حسن التَّقدير، والإرعاء علىٰ العيال والحشم جميل حسن التَّدبير يسعد الزَّوج بتلك الزَّوجة التي تحافظ علىٰ بيته وماله فتحيا حياة وسطيَّة لا إسراف فيها ولا تقتير، فتقدِّر الأمور بقدرها في حالة من الرِّضا والتَّسليم في غير ذلَّة ولا مسكنة، فهذا من حسن التَّقدير الذي يعني وضع الشيء في نصابه الصَّحيح والنَّظر إلىٰ المستقبل كأنَّه رأي العين، فالتَّقدير يأتي علىٰ وجوه من المعاني منها كما في التَّهذيب: التَّرْوية والتَّفكير في تسوية أمر وتهيئته. ويقال: قَدَرْت لأمر كذا أَقْدِر له وأَقْدُر قَدْرًا: إذا نظرت فيه ودبَّرته وقايسته. ثم تقوم برعايته ورعاية عياله وحشمه، وحشم الرجل: عياله وقرابته. الأزهري: والحَشَم : خَدَمُ الرَّجل؛ وسموا بذلك لأنَّهم يغضبون له. فكأنَّها في هذه الحالة أمٌّ تحتضن أطفالها، ومربية تريد لأبنائها دوام التَّفوق والنَّجاح في المستقبل، فهذا من جميل حسن التَّدبير، والتَّدبير في الأمر: أن تنظر إلىٰ ما تئول إليه عاقبته[2].

المبدأ الخامس: لا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا، فإنَّك إن أفشيت سرَّه لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره. الحياة الزوجيَّة كتاب مغلق لا تقرأ سطوره وتُقَلَّبُ صفحاته إلا بين الزَّوجين، قد يختلفا، ولا يفسد ذلك للودِّ قضية، وقد يتَّفقا، وليس معنىٰ ذلك التَّنازل أوالتَّساهل، فالبيوت تمرُّ بكثير من

(1) السابق (ن غ ص) 6/ 4488، (ب غ ض) 1/ 319، (غ ض ب) 5/ 3262.

(2) السابق (ق د ر) 5/ 3547، (ح ش م) 2/ 889، (د ب ر) 2/ 1321.

الأزمات ولكنَّها ليست عرضة للقيل والقال، وطرح السؤال وانتظار الجواب، فأولىٰ أبجديات السَّعادة تكمن في كتمان الأسرار وحفظ ما يخفيه الليل ويقوله النهار، فإنَّ إفشاء الأسرار مقدمة الغدر، والغدر من أقبح الصِّفات، فهو عنوان الخيانة ورمز لعدم المرءوة وضياع الوفاء بالعهود والمواثيق، فلا تدفع الزَّوجة زوجها لذلك، كذلك عصيان أمره يكون سببًا في أن يوغر صدره ويضيق بما تفعله به فيمتلأ قلبه قسوة وكرهًا، يقال: وَغِرَ صدره عليه يَوْغَرُ وَغَرًا، ووَغَرَ يَغِرُ: إذا امتلأ غيظًا وحقدًا، وقيل: هو أن يحترق من شدَّة الغيظ[1]، فاستقرار الحياة الزوجيَّة لن يكون إلا بالسَّمع والطَّاعة، وهي ما نبَّهت إليه في بداية الوصية.

المبدأ السادس: ثم اتَّقي من ذلك الفرح إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فَرِحًا، فإنَّ الخصلة الأولىٰ من التَّقصير، والثَّانية من التَّكدير. المرأة العربية خبيرة نفسيَّة تدقُّ علىٰ أبواب القلوب البشريَّة فتفتح لها، فالنَّفس يعتريها الفرح والحزن والسَّعادة والشَّقاء، وعلىٰ ذلك لا تسأل عن حال دون حال بل لا بد من مراعاة جميع الأحوال، والذَّكي مَنْ يدرك أسرار ذلك، فالأولىٰ إيَّاكِ من السَّعادة إن كان تَرِحًا حزينًا، فالتَّرَحُ: نقيض الفرح، فإنَّ هذا من التَّقصير، والتَّقصير في الأمر: التَّواني فيه، وعلىٰ ذلك فهي غير مدركة لقيمة العمل المناسب في الوقت المناسب إن لم تراع ذلك، والأخرىٰ إيَّاكِ من الاكتئاب إن كان سعيدًا، فالكآبة: سوء الحال، والانكسار من الحزن. واكْتَأَبَ اكْتئابًا: حَزِنَ واغتمَّ وانكسر، فإنَّ هذا من التَّكدير الذي يضع بصماته عنوانًا علىٰ سوء المعيشة وتغيُّر حالها، فالكَدَرُ: نقيض الصَّفاء. ويقال: كَدَّرَ عيش فلان، وتَكَدَّرَتْ معيشته[2]، وعلىٰ ذلك تعلَّمي مراعاة مقتضىٰ الحال وأطلقي الجواب حتىٰ يصيب السُّؤال، فهذه مهارة خاصَّة تتحدَّث بلغة العقل والمنطق وتستند إلىٰ الشَّواهد والبراهين؛ لأنَّ التَّقصير والتَّكدير أمارة من أمارات الفشل، وعنوان من عنوانين اليأس وعدم التَّوفيق.

(1) السابق (و غ ر) 6/ 4878.

(2) ينظر: لسان العرب (ت ر ح) 1/ 426، (ق ص ر) 5/ 3646، (ك أ ب) 5/ 3801، (ك د ر) 5/ 3835.

المبدأ السابع: وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة. تقترب الحياة الزوجيَّة من السَّعادة وتبتعد، تقترب بالاحترام وحسن التَّقدير، وتبتعد بالتَّطاول والصَّغار والهوان، فتقدير الزَّوج وتعظيمه مردوده إكرام الزوجة ورفعة شأنها، وموافقة الزَّوج في آرائه وإرشاداته إن كانت حكيمة ورشيدة مردوده مرافقة الزوجة له في حلِّه وترحاله، في صحوه ومنامه، وهذا من أسباب دوام العشرة والوصال مهما ساءت الظروف وتقلَّبت الأيام.

المبدأ الثامن: واعلمي أنَّك لا تصلين إلىٰ ما تحبِّين حتىٰ تؤثري رضاهُ علىٰ رضاكِ وهواهُ علىٰ هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ. قد ترىٰ الزَّوجة الحياة بمنظار نفسها، ولكن هل فكَّرت في أن تراها بمنظار زوجها؟ ربَّما لو فكَّرت في ذلك لتغيَّرت كثير من المفاهيم في حياتها، وهدأت خفقات قلبها، وربَّما لو قدَّمت رضاه علىٰ رضاها وهواه علىٰ هواها لانتقلت بها الحياة إلىٰ عالم آخر، وهذا عالم الإيثار، وهو التَّفضيل، وآثره عليه: فَضَّلَه. وآثر أن يفعل كذا: فَضَّلَ وقَدَّمَ. وآثرت فلانًا علىٰ نفسي: من الإيثار. الأصمعي: آثرتك إيثارًا: أي فَضَّلتك، ثم الرِّضا: وهو ضد السَّخَط، ثُمَّ الهوىٰ -مقصور-: هوىٰ النَّفس، وإذا أضفته إليك قلت هواي. ابن سيده: الهوىٰ العشق، يكون في مداخل الخير والشر. التهذيب: قال اللغويون: الهوىٰ محبة الإنسان الشيء وغلبته علىٰ قلبه[1].

وهذا ما تختم به المرأة العربيَّة وصيتها لابنتها ليلة عرسها، وملخص ذلك أنَّ الحياة الزوجيَّة لا تبنىٰ علىٰ الفرديَّة والأنانيَّة وحبِّ الذَّات وإنَّما تبنىٰ علىٰ التَّآلف والتَّراحم بين الطرفين الذي يزيل الخلاف ويعمل علىٰ جمع الشَّتات، فإذا ما تحلَّت المرأة بالإيثار وقدَّمت رغبات زوجها علىٰ رغباتها لما وجدنا للطلاق سبيلاً في مجتمعات الماضي والحاضروالمستقبل.

(1) السابق (أ ث ر) 1/ 26، (ر ض ي) 3/ 1663، (ه و ي) 6/ 4728.

العنوان الثاني: الصفات الخِلْقية

مبدآن اعتمدت عليهما هذه الوصية في هذا الجانب، وهما:

المبدأ الأول: التعهُّد لموقع عينه، والتفقُّد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منكِ علىٰ قبيح، ولا يشم منك إلا طيب ريح

في هذا المبدأ عرض وتحليل، فالزَّوجة الصَّالحة لا بد من أن تتابع حركات وسكنات زوجها، ليس بغية التَّجسس علىٰ أخباره ومعرفة ما يخفيه والإصرار علىٰ كشف أسراره، وإنَّما بهدف الاطمئنان علىٰ أحواله، وتسكين ما يشغل باله، فعندما تنظر عين الزَّوج فلا يرىٰ منها إلا كل حسن وجميل فلا تقع عينه علىٰ قبيح، كذلك أنفه لا تشم إلا طيب ريح، فالرَّائحة الطَّيبة تبعث البهجة في النُّفوس وتجعل المستحيل غير مستحيل.

المبدأ الآخر: الكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود

يقدِّم هذا المبدأ تفصيلاً وتوضيحًا وتعليلاً لما قبله، فلا تقع عين الزَّوج علىٰ قبيح إنَّما أرادت به جمال وحسن المرأة الذي يُزيِّنه الكحل، وهو: ما يكتحل به.

قال ابن سيده: الكُحْلُ: ما وُضِعَ في العين يُشْتَفَىٰ به[1]، ثم لا يشمُّ منها إلا طيب ريح، والماء أطيب الطيب، وقد أرادت بذلك الاهتمام بالنَّظافة والاغتسال بالماء فإنَّما هو أطيب الطيب وبداية كل حسن وجميل. وبهذا الحسن الخُلُقي والخِلْقي تكون المرأة قد جمعت بين الحسنيين، والسعادة لن تكتمل إلابهما معًا.

«وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطَّابع الذي كان يسود ذلك العصر، والوصية قلائد من الذَّهب جاءت عفو الخاطر، ودون تكلُّف أو صناعة متعمَّدة، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات مما أكسب النَّص روعة وجمالاً، كما عمدت أم إياس إلىٰ التَّنويع في الأسلوب والخطاب، فمرَّة تجد النداء في قولها: أي بنية، يتبعه الخبر المؤكد في قولها: «إنَّك فارقت بيتك الذي منه خرجت»،

(1) ينظر: لسان العرب (ك ح ل) 5/ 3831.

وأحيانًا تجد الأمر في قولها: «فكوني له أمة يكن لك عبدًا»، واحفظي له خصالاً عشرًا يكن لك ذخرًا» كما نجد الخبر يتبعه النَّهي المؤكد في نحو قولها: «فلا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا»، كما نجد أسلوب الشَّرط في قولها: فإنَّك إن أفشيت سره، لم تأمني غدره، وما أحسن أسلوب التَّحذير في قولها: ثم إيَّاك والفرح بين يديه إن كان مهتمًا، والاكتئاب إن كان فَرِحًا، وهذا التنويع في الأسلوب والخطاب له أثره في الخطاب والتَّشويق واستثارة العواطف ولفت الأذهان، وتنبيه المخاطب إلىٰ ما يقال وما يجب أن يأخذ ويعمل به»[1].

(1) أدب النساء في الجاهلية والإسلام ص18.